الدكتور أبوبكر السقاف.. دفاعاً عن الحرية والإنسان المجتمع المدني وبناء كيان الأمة

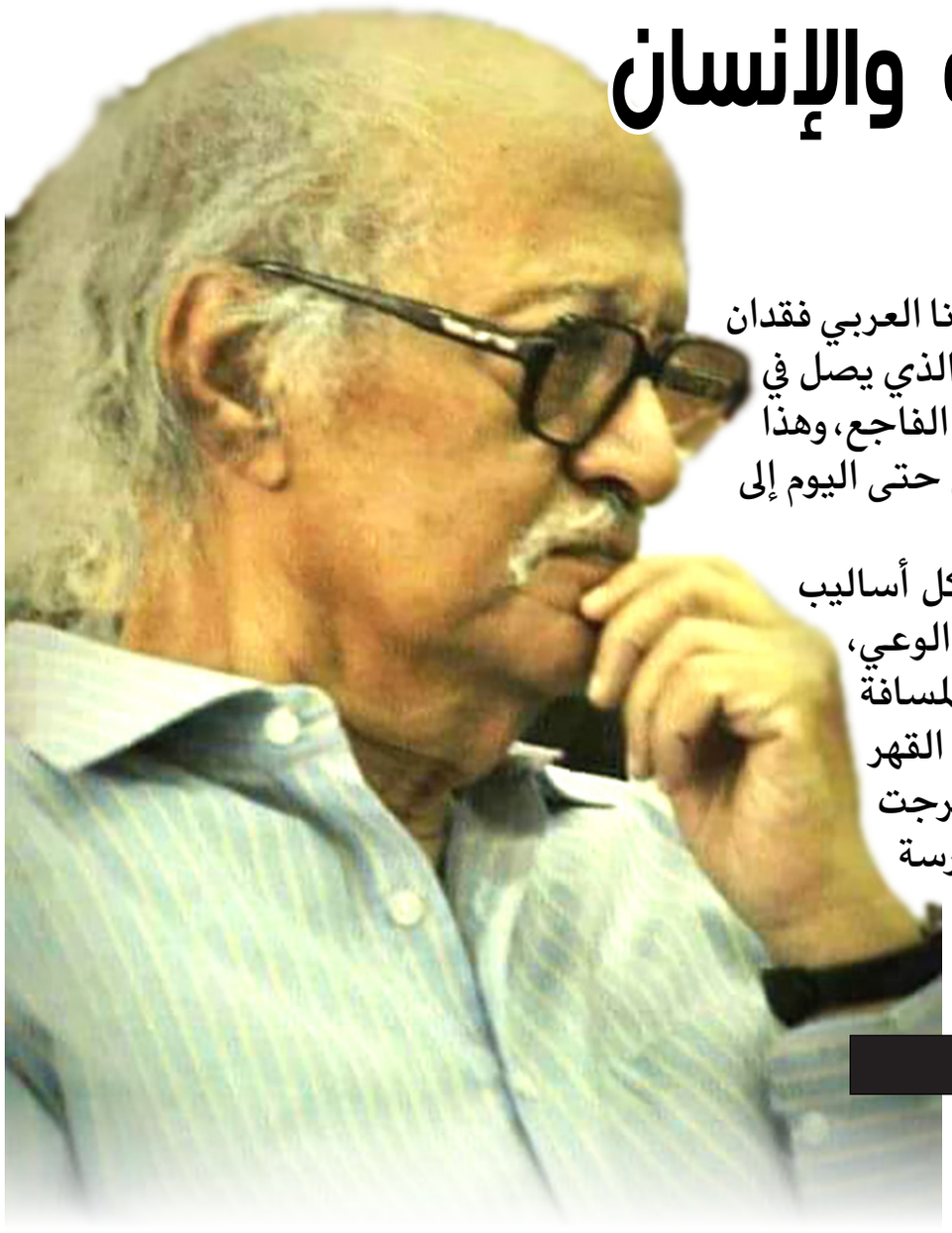

من قدرية الصراع بين المفكر والسلطة في واقعنا العربي فقدان الحد الجامع بينهما وهو ما خلق هذا التنابذ الذي يصل في غالب الاحيان إلى حد ثنائية التناحر والصدام الفاجع، وهذا يعود إلى ان السلطة في واقعنا العربي لم تصل حتى اليوم إلى مفهوم الدولة المدنية.

في عمق هذا المأزق التاريخي والذي مارس كل أساليب وأشكال الطرد والنفي وكذلك الاغتيال ضد الوعي، عدم الالتقاء بين المفكر ورجل السلطة والمسافة الفاصلة بينهما هي ساحة صراع لأن سلطة القهر لا ترى برجل الفكر سوى حالة ضالة خرجت عن طاعة الجهالة والرغبة السيادية في ممارسة فعل التلذذ في تعذيب الآخر حتى تتضخم الذاتية العدوانية في صنع سيادة السلطة على

نجمي عبدالمجيد

وحتى الآن مازالت طرق الاتصال بين المفكر ورجل السلطة تزرع فيها الالغام من قبل الحكم وتطلق فيها لغة النقد والكشف من قبل المفكر، لذلك لا غرابة ان نجد الجريمة من طرق الردع الخارج عن السكوت الذي يصبح مثل تراب القبور على كل مفاسد الحكم حيث ترتفع الكلمة على حجم السلاح والسجن والقبر لتصبح هي الحقائق التاريخية التي لا ترحل عن الذاكرة مهما عزز المجرم جرائمه بأقوى اسلحة الغدر والخديعة كي يظل الضمير في موقف المذلة والصمت، وهو ما رفضه المفكر الدكتور أبوبكر السقاف الذي سعى عبر الكلمة لوضع أسس المجتمع المدني في بلادنا عبر التخاطب والتوضيح وكشف عوامل التزوير التي يذهب إليها الحاكم عبر التدين وتسويق خطابات المواطنة والعدل لكن حقيقة الواقع عنده لا ترى في الحكم سوى الحق المطلق لديه ودون هذا هو الكفر والموت لمن طالب بالحقوق المدنية.

مما يطرحه هذا المفكر علينا: (الانقلابات العسكرية في القرن العشرين لون من امارة الاستيلاء وتنويع على احفورات تاريخية في ظروف العصر الحديث ويبدو انها تستجيب لبنية داخلية عتيقة في المجتمعات العربية ومصالح خارجية مكنتها من احتكار السياسة بوساطة في اقطار مختلفة يجمع بينها تخلق البنى الاجتماعية حيث الجيش مكان التجمع الوحيد لقوة منظمة تملك السلاح وينظمها تراتب اداري يجعلها قادرة على الحركة وممارسة القوة.

وغياب تاريخ ديمقراطي في هذه المجتمعات شرط وجود لظهور واستمرار الانقلابات العسكرية.

ومقتل كل الأنظمة العسكرية هو ان القوة وحدها لا يمكن ان تكون مصدراً للشرعية في أي عصر من العصور فهناك دائماً ناظم معنوي وقيمي يجعل السياسة والثقافة والادارة تنظيماً اجتماعياً للمعنى، وما الأزمات والعنف ودوراته الصغيرة والكبيرة إلا صدى لغياب الشرعية وما يلازمها من عقد مستبطن يربط السلطة بالناس ويطغى التماسك والهدوء على الحياة الاجتماعية والسياسية). عقلية السلاح والغدر لن تصنع المجتمع المدني.. هي خلاصة الرؤية لما طرحه الدكتور أبوبكر السقاف.

غير ان الخطورة في هذا الوجع الذاتي ـ التاريخي ترسب جذوره في نفسية الفرد والجماعة بما ينعكس على طرق تغيير الحكم.

هناك في زوايا السرديات التاريخية مما يعزز حق اغتصاب السلطة ويوطن أذرع الجرائم التي تصبح لسان الحق في التخاطب مع الأمة.

عقلية مثل هذه ليست لها من ابعاد في الرؤية غير وضع القوة القهرية في كل صور المشهد ولا يترك فراغ لمن يتجاوز هذا الخط الدموي، وكما تصعد قوى قهرية لتسحق ما سبقها تضرب حلقات الحصار على ما يسود حتى تتشكل قوى مغايرة من نفس المحيط لتضرب السائد ويسقط لتصعد قوى اخرى تمارس اساليب الجرائم السابقة تحت شعار تصحيح المسار، وفي هذا لابد من جريان الدماء وكسر العظم وسلخ الجلد؛ لان لغة العنف هي من تزرع الرهبة والخوف من السلطة ولون الموت هو عنوان الحكم وحتى الواقع لم يعد يملك من وسائل التنوع إلا ما يرى في هذه الحلقات المترابطة حالات الأزمات والحروب.

هذا التراكم من أزمنة التسلط والذل والاستسلام غيب عن وعي الذات في الأمة مفهوم المدنية لمعنى الدولة حيث اصبح السلاح هو الدستور والضابط، هو القائد، والمعسكر والسجن هما الوطن والمواطنة.

لذلك تساقطت كل محاولات الخروج من هذا النفق المظلم واصبح الظلام هو من يقود عقول الأمة، وأمة جعلت من الظلمة جلدها ليس لها من نور مشرق.

وفي عبارة اخرى يقول: (الجمع بين رئاسة الجمهورية ورئاسة الجيش هو أساس البلاد وحجر الزوايا كلها في النظام العسكري).

اليست هذه العوامل هي ثنائية الانتحار لكل حكم قام عليها واطالة لحروب الدوائر المغلقة التي دخلت فيها قيادات العساكر وراحت تتهاوى واحدة بعد الاخرى مثل تساقط الألواح الزجاجية عند أبسط هزة رياح لا تقوم إلا لتدمر وتنهي هذا النوع من السلطة؟

ليس ما يطرحه الكاتب علينا مجرد رأي بل هو خارج من واقع الممارسة مع سلطة العسكري في بلادنا.

جمهورية القائد الأعلى للقوات المسلحة هي وقوف على رمال متحركة.

لذلك نجد سقوط دولة العسكر هي الأسرع في حسابات الانفلاتات الأمنية هنا نجد أنفسنا في وضع المكان المتصدع الخادع لمن يظن انه الأرضية الصلبة للصمود لطول الزمن، حسابات الوقت هنا مهما طالت تدخل في عداد الوقت المحدود الذي كلما صعد إلى الأعلى ارتفعت درجات الاختناق فيه حتى تنكسر مسارات التنفس وتقطع عنق اكذوبة الحكم المطلق.

ان السلطة التي تؤسس على عقيدة الدم لن تصنع سوى تاريخ من الجرائم وفي هذا فناؤها.

وفي وجهة نظره لمعنى السياسة يقول أبوبكر السقاف (السياسة منذ كانت مدنية بامتياز ومن هنا عقلانيتها وقوة المدنية والتمدين وبقية قسماتها الانسانية).

تلك هي عقلية المفكر الذي ينظر إلى السياسة من وجهة نظر المعرفة لا من منظور الغنيمة والانفراد بالحكم.

المدنية في مدارج الوعي الحضاري ـ التاريخي هي من ترسم معالم الطرق السالكة فيها حسابات السياسة.

ومن تنطلق معارف التمدن وتصبح الدولة مسؤولة في قيادة الأمة وليست غنائم وهنا ندخل في مقاييس نوعية وصفات رجل الدولة المدنية.

حيث لا وجود لمعنى الفردية والمناطقية والمذهبية والطائفية أو الحزبية المغلقة على دائرة لمن هم الأطراف الأقرب في اقتسام غنائم الحكم، بل السلطة تصبح مجرد وظيفة لها محددات من قوانين العمل وتشريعات الدولة.

هذا هو المجتمع المدني الذي لا يحول الحاكم إلى صنم يعبد خارجاً عن النفس الانسانية، وهو الخوف المزروع في ذاتية الحكم القاهر الذي يرى في المدنية عدواناً واعتداء على سيادة وقداسة الحاكم الذي يختصر الوطن والمواطن عند أصغر حدود ملكه. وهو ما ذهب إليه الأستاذ أبوبكر السقاف بكل ما كتب دفاعاً عن الحرية والانسان بحثاً عن سبل لتعزيز الانسانية مهما تصاعدت حدة الأوجاع سعياً لجعل الوطن والانسان ثنائية الوعي والحضارة.

في نظرة اخرى لواقع الحال العربي وموقفه من المجتمع المدني يقول الدكتور أبوبكر السقاف: (تتلازم في الحقل الذهني للحكام العرب قضيتا السلطة والمرأة حيث امتلاكهما معاً هو عنوان المجد، وفي الأسرة الابوية أرومة الاستبداد السياسي ولذا يتسم موقف المجتمعات العربية من المرأة بالشذوذ كلما قارناه بموقف المسلمين في آسيا.

فالأسرة الأبوية تنتج الاستبداد كل يوم واستبدال العرض بالأرض في تجاربنا المريرة في فلسطين والجولان لا تترك مجالاً للشك في ان لواء الملكية والسلطة يتوحد بوجود المرأة في منزلة التابع والدونية، والأسرة الابوية قبيلية بامتياز في أعمق جوانبها الحقيقية والوهمية فالذكورة والفحولة والبطولة وجماع كل الفضائل والمروءة علامة مميزة للرجل، والمواطنون الذين ينتجهم هذا النظام الأبوي يكادون يعبدون السلطة والقوة ومعها الأب الزعيم القائد الملهم، وأخطر حصر للحب والولاء داخل الجماعة الصغيرة التي تقف حائلاً بينه وبقية الجماعات والناس.

ولا يجب ان يظللنا الانتماء إلى جماعات الاسلام السياسي فهذه بدورها مبنية على تراتب أبوي صارخ أمير الجماعة البيعة مدى الحياة، الفتوى بدلاً من الاقناع الفكري، ومن هنا فان المنتمي يهرب من حريته ويتخفف من اعبائها مفوضاً الأب القائد في كل أمر.

وهذا يخفي تحت مسوح الدين كل ضرواة اطماعه المفرطة في دنيويتها).

حالة السلطة والمرأة في الشرق هو ما يدخل في اطار الغنيمة التي احدى اساليبها الاغتصاب ليس المادي فقط بل الروحي، وما طرق القهر وكسر الطموح، وكل ما يدخل في بناء هرمية عبادة الفرد لان السلطة الذكورية لا تقوم إلا على تراتب الطاعة والاحترام والاستسلام للقدر وصنع المسافة بين السيد والعبد وجعل العبودية من صفات الشهامة والرجولة وكلما تجنب الفرد غضب السلطة وصل إلى بر الأمان.

تصبح الشجاعة من باب الاحتيال على مواقف الدفاع عن الحق وتسويق الدين حسب ما يخدم الغرض.

لذلك تعلو نزعة الأخذ بالقوة عند الحاكم العربي بداية من المرأة التي مازالت في وضع النوع القائم على العار والعيب والحرام وكل نواقض مكونات الشخصية غير السوية الغارقة تحت ركام من أزمات المراحل في دوامة صراعاتها في حركة التاريخ حيث تظل مستقرة عند خرافات العادات والتقاليد والتي صنعتها المغالطات الذاتية وجعلتها كحق مطلق عند الضمائر الفاقدة لبوصلة تحديد الاتجاه، ومن هذا الواقع المنكسر تحت قهر امراضه تظل الواقعة تعيد انتاج نفس البصمات الحاقدة على الآخر وان تنوعت الأشكال والأحداث.

ان المفارقة كما يراها الدكتور أبوبكر السقاف في هذا الجانب في هذا التهاون من قبل الجماهير بل وصلت المسائل إلى التراخي وعدم الاهتمام بما يجب ان تذهب إليه الأحوال من ارادة في التغيير.

وكأن المجتمع قد جعل من هذا القهر حتمية قدرية ليس من الممكن تجاوزها وربما تذهب محاولات التمرد والخروج عليها إلى نكبات أخطر منها، ولهذا ما حدث للربيع العربي الذي تحول من تصحيح للنظام والمطالبة بحقوق المواطنة إلى حروب اهلية مدمرة ذهبت بالشعوب إلى مزيد من التشرذم والدمار وكأن واقع الحال يقول: اما القهر أو الموت وليس من طريق اخرى.

تعد الاطروحات الفكرية لهذا العلم الثقافي من المساعي الحضارية التي هدفت لقيام مجتمع مدني في بلادنا لكنه دفع إلى مربع اللا مقبول من جانب السلطة الاستبدادية في بلادنا ولم يكن الاعتداء عليه بالضرب - وهو الذي لا يملك غير سلاح الكلمة- إلا تعبيراً عن حقارة سلطة تظن ان قهر الآخر هو من يعطيها الحق الأبدي في السيادة.

لقد ذهب من اعتدوا على الدكتور أبوبكر السقاف وبقيت كلماته مشعلاً ينير دروب الحرية للعقل والروح ومازلنا نقرأ ونبحث في عمق هذه المعرفة لنصل إلى النور خروجاً من نفق الظلمات.

السياسة - منذ كانت - مدنية بامتياز ومن هنا عقلانيتها وقوة المدنية والتمدين وبقية قسماتها الإنسانية

الجمع بين رئاسة الجمهورية ورئاسة الجيش هو أساس البلاد وحجر الزوايا كلها في النظام العسكري

الإنسان مسؤول عن هزائمه وليس عن الأمجاد وحدها

المرجع:

الدكتور أبوبكر السقاف دفاعاً عن الحرية والانسان
صادر عن منتدى الجاوي الثقافي (1)
اعداد: منصور هايل
الطبعة الأولى 2011م

الإخوة أصحاب الأعمال.. الالتزام بسداد الاشتراكات التأمينية أولاً بأول إلى المؤسسة يجنبكم المساءلة القانونية وتراكم الغرامات